

## الروايات التاريخية

### في الادب المصري

للاستاذ اغناطيوس كراتشوفسكي

طالع قراؤنا دروس المشرق جيب على المنلوطي ( المشرق ٢٧ [١٩٢٩] ٦٨٤ ) وعلى طه حسين (١) (المشرق ٢٨ [١٩٣٠] ٢٥١) وما انا ندعوم اليوم الى سماع الاستاذ كراتشوفسكي المشرق الروسي المروف. قضى عامين في الشرق ، وتمرف الى اعظم ممثلي الادب في سورية ومصر، وانا في بيروت سنة ١٩٠٩ مقالاً في الروايات التاريخية المصرية اخذه اسأماً لما نشره فيما بعد في اوردية في هذا الموضوع. وراقت دروس المشرقين زملاؤه ، قاستأذنه احدم وهو كاسيقاير ، صاحب مجلة الحمية الالمانية للعارف الاسلامية ، في تدوين درسه في مجلته . فاذن له كراتشوفسكي بعد ان اعاد النظر في ما كتبه منذ عشرين عاماً ، وتمحه وزاد عليه . وهذا اول ما ظهر عند الافرنج في هذا الصدد ، وقد يكون تكلمة لكتاب تاريخ الآداب العربية للاب شيخو ، وفيه من النظرات والفوائد ما هو جدر بالاعتبار . لمنا لا يتاح لهم ان يطالوا امله من القراء (٢١ : ٢٠١ ص ٥١ وما بعدها) : ف. ت .

افصح الاستاذ كراتشوفسكي مقاله في الكلام على الادب الحي والادب الميت . فالادب الحي لا ينفك عن النور وعن العمل ، وله مفاعيله في حياة العصر الفكرية والاجتماعية. اما الادب الميت فهو الذي وقف عن النور وجفت اغصانه وليس له الا الأثر التاريخي. وتناول الكلام في الادب العربي ، فيما قبل الاسلام الى العصر الخامس عشر الميلادي ، فقال ان زمانه مضى وزال تأثيره في الحياة الفكرية البشرية الحالية مع انه كان ايام عزه ، في القرون الوسطى ، لسان حال الامة العربية ، ومورد استنى منه الافرنج. واطلق عليه العبارة التي قالها احد المشرقين في علم الفقه في الجزائر ان قيسته هي اثرية محضة. وتدارك

(١) نشرت مجلة الحديث الحلية المقال بحرفه عن المشرق ، ولم تذكر المصادر ، فيبحث

الادب حنه .

كإتشقوشكي، مراضة من يخاصه على المغالاة في الكلام فقال : ولمه يأتي بعدنا جيل يتقصى آثار الادب القديم وتأثيره أكثر مما فعلنا فيكشف على ما لم نتف عليه . وحصر درسه في الروايات الادبية التاريخية . فحضر صفحاً عن كتاب كليله ودمنة وكتاب الف ليلة وليلة ، وكلاهما خارجان عن دائرة المؤلفات العربية الاصلية ومادتها مأخوذة من العنصر الآري او الغير السامي .

وأتى على ذكر الروايات التاريخية العربية المحضة كإيام العرب ، وسيرة عنتر ، وقصة بني هلال ، وسيرة سيف ذي بزن ، وسيف التيجان ، وسيرة بيرس ، وقال انها نالت سهمها من التفوذ في عصرها ، وعلت الافرنج اموراً ساعدتهم على وضع نظام القروسية الغربي ، وعلى تدوين قصصها البطولية . ثم غاض ماؤها وجف عودها فبيست وماتت . . . ومضت قرون ثم ظهر في الادب العربي غرسة جديدة ، وابنت لانها ثمت في تربة اوربية ، تلك الغرسة انما هي الروايات المصرية الحديثة .

اخذت مادتها من المؤلفات الافرنسية والانكليزية خاصة . ومن الالمانية بواسطة ما ترجم منها الى اللتين السابقتين . وكان ناصيف اليازجي وبطرس البستاني اعظم من ساعد على نشأتها الجديدة في اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر وهما دعامة النهضة الحديثة . لم يعمل مباشرة في الدائرة التي حصرنا فيها مقالنا ، ولم يصرفا همهما الى التأليف الادبي الجميل (*Belletristik*) المميز القرن انتاسع عشر ، بل حصرا جهودهما في درس مؤلفات القرون الوسطى وفيها افرغا كنانتهما فكان لها نفوذ عظيم . . .

ومنذ ثمانين سنة دبّت الحركة في الاقلام فدفعتها الى التمجيد والتعريب . وعقب التعريب مؤلفات كانت تتم عن تقليد دوامان وريكود هوجو ووالتر سكوت . وبرزت الروايات التمثيلية للوجود وفي مقدمة كتبه ذلك الهدى اديب اسحاق ، وخليل اليازجي ، ونجيب حداد ، حفيد ناصيف اليازجي . اخذ نجيب رواياته عن الافرنج فتعلم عليهم ومضى في سبيله ، ومؤلفاته الروائية والشعرية خاصة لا تزال موضوعاً لاعتجاب الناس في يومنا . ومن البديهي ان جهود هؤلاء الكتبة في الروايات التمثيلية ساعدت على

حركة تأليف الروايات التاريخية. فنشرت مجلة المشرق رواياتها، وهي عنوان لما يمكن ان يستقصه الكاتب من حوادث تاريخ الشرق لسرد الاخبار الروائية. ولم يبلغ الاميريكان في هذا الصدد الشأو التي بلغت اليه كلية اليسوعيين. ولم يجولوا المكانة اللائقة بجهتهم، بل حصروا جهودهم في تصريب بعض الروايات القرية، والتصرف به فيما يعود بالمذمة على الكاثوليك وسواهم من النير البروتستانت. فسبق الافرنسيون الاميريكان في ذلك المضار، وبما يشهد على نجاحهم، ان اول من وضع رواية تاريخية في اللغة العربية كان من تلامذتهم، وهو جميل نخلة المدور. ولد في بيروت، وتخرج على الآباء اليسوعيين، وطبع في القاهرة سنة ١٨٨٨ كتابه «حضارة الاسلام في دار السلام». ولم يكن الكتاب رواية في حصر المعنى، اي انه ليس فيه عقدة ولا سعاية، بل هو سلسلة رسائل صادرة من رجل من رجال الحكم في القرن الثاني الهجري على ايام الرشيد ومعاصريه. فاعيا المؤلف ذكر ذلك العصر ورجاله واخلاقه ولم يشط عن الحقيقة التاريخية، فحط كتابه محطة في تاريخ الادب الروائي العربي. وتوفي المدور شاباً ولم ينشر سائر مؤلفاته.

وخص كراشكوفسكي برجي زيدان بصفحات عدة. زيدان «ابو الروايات التاريخية» ولد في بيروت، ودخل خادماً ودارساً في الجامعة الاميريكية، وكذا وجهه. ولم يمضِ عشر سنوات على خروجه من معهد التحليم الا وقد حاز شهرة واسعة في عالم الصحافة والرياضيات والروايات. ومن مؤلفاته: الالفاظ العربية والفلسفة القرية - انساب العرب القدماء - البلفة في اصول اللغة - تاريخ اللغة العربية - تاريخ مصر الجديد - تاريخ انكلترا - التاريخ العام... في السنة ١٩٠٢ اظهر كتابيه في «تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر» اخذاً عن «الملال» مجلته، وبأشر طبع «تاريخ التمدن الاسلامي» بمجموعة اجزاء. فالتفت اليه من عني بالآداب العربية من الافرنج، وتقل الاستاذ مرغوليوت الى الانكليزية السفر الرابع من ذلك المؤلف وضه في مجموعة جيب الشهيرة. وعسرت الحكم في هل اخطأ الاستاذ مرغوليوت في عمله ام اصاب. ولكن لا مناص من القول ان تاريخ زيدان مبني عن تصم

وأساس جامع لثنى المواد . ومفيد ليس فقط لعامة القراء العرب ، ولهم فيه فنى عن مؤلفات كرمير وفولدمير ، بل للعالم الاوربي ايضاً .  
 وذكر كراتشكوفسكي كتاب تاريخ الآداب العربية والمناهل التي استقى منها زيدان وتقد الناقدين عليه ، ونوه بجملة الملل ومعظم مقالاتها من قلمه بما يدل على طول باعه وقال : وقد يُلام زيدان على بعض التصطح ، وعلى قسلة التمسق في المواضيع ، واوليات مؤلفاته تم من نقص في معرفة الآداب العربية الاسلامية بكاملها . ولكن مكاتته على الاجمال عالية بفضل جهاده وثباته على العمل ، وقد نال تلك المكافاة ليس فقط في الادب ولكن في درس احوال العالم العربي المصري ، فتعلمها وعلمها . وكان الادبا على ايامه يقارون في ميدان ضيقوا فيه على القراء بين اتيق النثر ونامم الشعر . فاعرض زيدان عنهم وبرهن بعله ان المشاكل التاريخية والعمرائية الكبرى تلت نظر القراء . وتسرهم اجمعين . ورمى الى اغراض شتى فطوراً اخطأ ، وطوراً اصاب ، وصار هبةً نقد الصحافة والمجلات العربية .

وتوسع كراتشكوفسكي في الكلام على زيدان الموزخ الروائي وقسم رواياته قسمين الاول يشمل : استبداد المالك ، والملوك الشارد ، واسير المهدي ، وليس لها بينها صلة حقيقة . اما الثاني فمعلقاته مرتبطة متواصلة بالموضوع والزمان والمكان اي منذ مسهل الهجرة الى ايام الفتح : فتاة غمان ، ارماتوة المصرية الخ . بهذه الروايات قال زيدان شهرة واسعة . فحذا حذوه محررو الجرائد السيارة كعبد المسيح الانطاسكي الحلبي الاصل مدير العمران (١٩٠٣) ، المتوفى سنة ١٩١٧ . ونقل الى الفارسية والهنديستانية والانكليزية والفرنسية والروية حلقات وسلسلة منها .

النقد الادبي يقناول زيدان من الوجهتين التاريخية والفنية . وانه اختار من التاريخ المواضيع العصية التي يتولد منها احتكاك المصالح وحدث الحوادث التي تنجلي فيها اخلاق الاشخاص سواء اكان ذلك في بلاد الاندلس ، او على ايام بني امية ومشاحناتهم مع اهل الشيعة ، او على عهد دخول الاتراك في الدولة العربية . لقد ادى التاريخ الاسلامي مادة وافرة قوتلير ولامارتين وغوطه وغيرهم

في تأليف رواياتهم التشيلية . ولا سبيل الى تقد زيدان لانتجاده دعائم رواياته من ذلك التاريخ . على ان القسم الاول هو دون الثاني قيمةً تاريخيةً ، وعلّة ذلك ان المؤلف لم يكن قد ادرك الخبرة التي رقي اليها فيما بعد ، فضلاً عن ان وقائع الروايات الاولى كانت اقرب عهداً اليه من ان يوفى في النظر اليها عن البعد الزمني الذي لا بد منه للالمام بالحوادث والاشخاص وانتخاب ما يصلح منها للرواية . وامتازت سلسلة زيدان الثانية بمطابقة قصورها لها ، وصورتها مادتها ، وانشائها معانيها .

اما زيدان الروائي الفني فارول ما يقال فيه ان رواياته مرآة الواقع بما فيها من صورة حياة الناس . تلك الصورة قد ابرزها المهتمون من الكعبة بما فيها من جميل او شنيع . اما زيدان فتعاشى عن العار وستر الشار ، فاستحق الثناء . كشف على اطراف الحادثة كثيراً ، واهتم بتحليل اخلاق اشخاصه قليلاً . ولم يُسمع عن اقوالهم وصناعتهم ابعد من الحدود التي احتدها في الزمان والمكان السرحاً للرواية . ان الكاتب ابن الفن هو من له قوة المخيّلة والشعور . وهذه مقوة تبرز في الاشخاص الذين يتأرون ادوارهم في رواياته . وفي وصف الطبيعة ومحاماتها . اما ابطال زيدان فاقرب اقوالاً وعواطف الى رجالات التاريخ الصحيح منهم الى مبتدعات الشعراء والمتنئين . واما صورته للطبيعة فهيفساء شاحبة ، وجماله الفني بعيد الخيال . على ان ذلك التقص ليدو خاصة في اوليات مؤلفاته ، والخبرة مع الزمان خففت من وطأتها . ولا عجب ان ينال التاريخ حظه الاوفر من الروايات وهو الميدان الواسع الذي جال فيه زيدان بقلبه . وبما يذكر له بالفضل انه عالج المواضيع الاسلامية ، ولم يمس المسلمين بعواطفهم . وظهوره في الادب العربي المصري رفع منزلة الادب الروائي الى مستوى الادب الحي . وتكلم كراتشكوفسكي عن فرح انطون ، ويعقوب صروف ، وخلييل خياط ، وامين ظاهر خيرالله ، وخلييل بك سعادة ، وابدى فيهم رأيه . . . ونوه بالمجادلة التي حدثت بين المستشرقين منذ ثمانين سنة حول الروايات التاريخية . وختم بعبارة الامل في حسن مستقبل الروايات التاريخية العربية وما يرجى لها من الازدهار بفضل النهضة الادبية المصرية .